

مراجعة كتاب: "هويات مُسائلة: التعايش والصراعات المابين دينية في المتوسط (من القرن

14م إلى القرن 18م)"¹

**Book Review: 'identities accountability: coexistence and religious conflicts
Almabin on average (from the 14th century AD to 18th century AD**

حُسام الدين شاشية

مخبر التراث جامعة منوبة تونس

تاريخ القبول: 2016/09/04

تاريخ الاستلام : 2016/07/03

"هويات مُسائلة: التعايش والصراعات المابين دينية في المتوسط (من القرن 14م إلى القرن 18م)"، هو عنوان الكتاب الذي صدر عن جامعة بلنسية في ربيع سنة 2016، والذي ضمّ أعمال المؤتمر الدولي الذي عُقد خلال شهر ماي من سنة 2015، وقد جمع هذه الأعمال وقدم لها الأستاذة بورخا فرانكو، برونو بومارا، مانوال لوماس، بربرا رويث.

يحاول هذا الكتاب دراسة بناء الهوية وتطورها في المجتمعات المتوسطة، والعلاقات التي تجمع مُختلف الهويات المكونة لهذه المجتمعات، من تعايش وصراعات، اندماج أو إدماج قسري في المتوسط، من القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر.

هدف الباحثين في هذا العمل كان خصوصاً دراسة كيف تُبنى الهوية في علاقة بالآخر، أي أن الهوية هي في الأساس وعي مجموعة مُعينة بإختلافها الثقافي، الديني والاجتماعي... عن الجماعات الأخرى المكونة للمجتمع، بمعنى أن الاختلاف هو أساس تشكل الهوية، لكن مع الإشارة إلى أن هذا الاختلاف كما يمكن أن يكون طبيعياً، تشكل عبر الزمن، يمكن أن يكون كذلك مُصطنعاً أو قد ساهم في تشكله بعض الأفراد (رجال الدين، السياسيون، المثقفون...) أو الدولة التي قد تلعبُ سياستها الإقصائية أو الإدماجية القسرية دوراً محورياً في وعي جماعة مُعينة بتميز هويتها.

حاول الباحثون المشاركون في كتاب "هويات مُسائلة" معالجة مُختلف القضايا التي ذكرناها سابقاً من خلال مُقاربات وزوايا مُختلفة، فاهتم البعض بالمسائل السياسية، الاجتماعية والدينية، في حين قام آخرون بدراسات جهوية مُتعلقة ببعض الجماعات والمناطق الإسبانية. كما خصص بعض الباحثين دراساتهم للبحث في موضوع الهوية من خلال كتابات جماعة بعينها، كما هو الشأن بالنسبة للموريسكيين، أو كتابات جماعات الأغلبية كالمسيحيين القدماء، في حين تم تخصيص الباب الرابع والأخير لموضوع حضور الهوية في الأعمال الفنية.

نلاحظُ بالنسبة للباب الأول الاهتمام خصوصاً بحضور الكونفارسوس والموريسكيين على الأراضي الإيطالية، كعمل سيسيليا طاسك التي عالجت حضور وإدماج الكونفارسوس في المُجتمع الصقلي، أو عمل برونو بومارا سافينو الذي بحث في حضور الموريسكيين البلنسيين بإيطاليا خلال القرن السابع عشر، فقدم للقارئ العديد من المُعطيات الجديدة والوثائق النادرة التي وجدها في الأرشيفات الإيطالية.

اهتم الباحثون في هذا الباب "بالمُهتدين" في البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة الحديثة، وأيضاً بما يمكن تسميته "الهويات المسحوقة"، كبحث فلانتينا أودراني حول وجود الأوروبيين بالأراضي الإسلامية، وصعوبة محافظتهم على ديانتهم المسيحية، أو بحث لويس فاي كانتو حول مصير سكان وهران من المسلمين بعد أن سيطر على المدينة الإسبان سنة 1732.

في الباب الثاني قدّم لنا الباحثون دراسات جهوية حول الهوية الموريسكية بمناطق إسبانية مختلفة، فمثلاً اهتم خافيير هنراندات روانو ببناء هذه الهوية بجهة خيفارت Xivert، ودرس سارجي سيلفيستر بارات من خلال دفاتر الديون علاقة المسيحيين القدماء بالموريسكيين في جهة كوستتاينا Cocentaina، في حين قدمت ماريا لويسا ثورانيا دراسة طريفة حول الصور التي شكلتها جماعة المسيحيين القدماء حول كتابات الموريسكيين، حيث ربطتها دائماً بمحاولة هذه الجماعة إخفاء ثرواتها، ثم تدوين كيفية الوصول إليها بالعربية أو الألكاميديّة، من هنا وكما

تُبين المؤلفة شاع في جهة بلنسية البحث عن كنوز الموريسكيين ومُحاولة الوصول لمن يمكنه أن يقرأ كتاباتهم.

أما في الباب الثالث فقد حاول الباحثون تحليل الهوية الموريسكية من خلال كتابات أنتجتها الجماعة نفسها، كالبحث الهام للأستاذ لويس برنبايه بونس الذي اعتمد مجموعة من النصوص الموريسكية، أو شهادات هؤلاء أمام محاكم التفتيش، مُبيِّناً تعقيدات البحث في الهوية الموريسكية، مؤكداً في خاتمة بحثه على أن تحديد المسيحيين القدماء لتمييزهم عن الموريسكيين، كان يتم من خلال العبادات الكاثوليكية، ومجموعة من العادات التي جعلها المسيحيون ركيزةً لهويتهم، كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر...، في حين شكّل الموريسكيون هويتهم على أساس الاختلاف مع هذه العادات.

في نفس الإطار تُقدم لنا باربرا رويث بخارانو دراسة حول مُحاولة الموريسكيين الأراغونيين المحافظة على هويتهم، والمجهودات التي كان يقوم بها قادة الجماعة وفقهاؤها لتحقيق هذا الهدف، حيثُ تلاحظ حضور هذا الهاجس بصفة واضحة في مؤلف "التفسير" لمانثيلو دي أرفالو Marcelo de Arévalo، فقد كان الموريسكيون يحاولون المحافظة على هويتهم في وسط مسيحي معادي، يعمل من خلال حملات التبشير وقرارات محاكم التفتيش على القضاء على هذه الهوية، مُبرزةً أن الكتابات الموريسكية هي التي حافظت على الهوية الموريسكية من الضياع طيلة القرن السادس عشر وحتى قرار طرد الموريسكيين الأراغونيين في شهر أفريل من سنة 1610.

في الباب الرابع والأخير قدم لنا المؤلفون دراسات طريفة، حاولوا من خلالها استقراء وتحليل موضوع الهوية وتفرعاتها من خلال الأعمال الفنية التي تعود في مُعظم الأحيان إلى الفترتين الوسيطة والحديثة، فبالنسبة للفترة الأولى يمكن أن نذكر بحث أميادو سارا ديسفيليس الذي حلل فيه مجموعة من الأعمال الفنية واللوحات الموجودة في متحف الفنون الجميلة بمدينة بلنسية، والتي تتعلق بعمليات التعميد، أو بحث ماريا بورتمان التي درست عددًا من الرسوم حول تعميد اليهود والمسلمين في إسبانيا خلال القرن الخامس عشر.

بالنسبة للفترة الحديثة فيمكن أن نذكر دراسة فرناندو مارياس حول الإشكاليات التي كان يتعرض لها الفنانون من الكونفارسوس في العصر الذهبي. أيضاً حول نفس الفترة نجد البحث الهام لبورخا فرانكو يوبيس حول رؤية المسيحيين القدماء للموريسكيين من خلال الأعمال الفنية، حيثُ طرح المؤلف العديد من الإشكاليات، وقارن بين "الصورة الرسمية"، "الصورة الأدبية"، "الصورة المرئية أو الفنية" التي رُسمت للموريسكيين، مؤكداً أن صورة الموريسكي وإن تطورت خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر نحو السلبية في الوثائق الرسمية الإسبانية وفي الكتابات الأدبية والإخبارية، فإنها في الأعمال الفنية لم تسلك نفس الاتجاه، بل هي كما يعبر عنها بعبارة "صورة صامتة" أو صورة مُحايدة، لا يُمكن الحكم عليها بالسلبية أو الإيجابية. إجمالاً يمكن القول أن أهمية هذا الكتاب لا تتأتى فقط من تنوع الزوايا التي عولج منها موضوع الهوية في المتوسط خلال نهاية الفترة الوسيطة والفترة الحديثة، بل كذلك من القيمة الهامة للدراسات التي ضمها، والتي كانت في معظمها على درجة عالية من العمق والحرفية العلمية.

على الرغم من تنوع الزوايا، والقيمة العلمية العالية لكتاب "هويات مُسائلة"، فإن ما يمكن أن ننقده بالنسبة لعمل وعد مُحرروه في التقديم بطرح شامل لموضوع الهوية في المتوسط، هو تغييبه شبه التام للصفة الجنوبية، والتركيز فقط على الضفة الشمالية، فمثلاً كنا نحيد الوقوف بأكثر تفاصيل على كيفية تطور الهوية الموريسكية في مُجتمعات الاستقبال المغربية، كما كنا نرغب في وجود دراسات مُقارنة حول الهوية وتشكلها بين المُجتمعات المسيحية والإسلامية خلال الفترة الحديثة، إلى غير ذلك من المسائل التي كان من الممكن أن تساعدنا في فهم الموضوع المطروح بصورة أدق وأشمل.

الإحالات :

¹- Borja Franco, Bruno Pomara, Manuel Lomas, Barbara Ruiz (eds.), *Identidades cuestionadas. Coexistencia y conflictos interreligiosos en el Mediterráneo* (ss. XIV-XVIII), Valencia, Servei de Publicacions de la Universitat de València, 2016.